

التكوين الوظيفي للمدينة الإسلامية

د. سارة منينة

تمهيد

كان الإسلام منذ البداية ديناً حضرياً بالمعنى الدقيق للكلمة، أو دين مدن ان صح هذا التعبير . ولست أقصد بذلك أن انتشار الإسلام أو تقبله واعتناقه كان قاصراً على أهل المدن دون غيرهم، ولكن المقصود هو أن الحضارة الإسلامية كانت دائماً حضارة مدن، فقد ازدهرت النظم الإسلامية في عدد كبير من أمهات المدن التي لعبت دوراً هاماً خلال عصور التاريخ الإسلامي كله، وفيها كانت تتركز مظاهر الحضارة الإسلامية المميزة مثل المساجد الكبرى والمدارس الدينية بل وأيضاً الزوايا الصوفية . وقد ظل هذا النظام قائماً حتى القرن التاسع عشر، فقد ظهرت الزوايا السنوسية في ليبيا في المراكز الحضرية وشبه الحضرية، ولقد ولد النبي ﷺ في مدينة هي « مكة » التي عرفت بأمر بالهجرة هاجر إلى مدينة أخرى هي « المدينة » ولم يهاجر إلى الصحراء . وليس من شك أن عنصر الاستقرار يعتبر أحد المتطلبات الأساسية لظهور الدين ونشأته وتطوره ونجاحه وانتشاره .

ولقد أعطى الإسلام المدينة الإسلامية شخصيتها، وطبعها بطابع خاص، وهذه الشخصية تظهر في كل المدن وتكشف عن وجود (روح) عامة ثابتة ومستمرة خلال التاريخ الإسلامي كله، كما ان هذه الروح هي التي ساعدت المدينة على أن تؤكد ذاتيتها كقوة دافعة خلال التاريخ بفضل مجتمعتها المتناسك الذي يؤلف وحدة متعاونة .

الملامح الأساسية للمدينة الإسلامية

وهناك ملامح أساسية نجدها في أية مدينة إسلامية . ويمكن وضع صورة لما قد تكون عليه المدينة الإسلامية النموذجية على الرغم مما في هذا العمل من خطورة ومخاطرة، وعلى الرغم من أن هذا العمل له مزالقه الكثيرة نظراً لتعدد الأشكال وكثرة الاختلافات والتوزيعات في كل تلك المساحة الشاسعة وخلال تلك الفترة التاريخية

الطويلة . ولكن مع ذلك فإنه يمكن القول، بشيء من التجاوز، إننا نتوقع أن نجد في أية مدينة اسلامية عدداً من الملامح الأساسية نلخصها بخمسة عناصر هي :

أولاً: وجود القلعة التي تقوم بطبيعة الحال على موقع له طبيعته الدفاعية، بل ان هذا الموقع ذاته كثيراً ما يكون هو العامل المتحكم لقيام المدينة ذاتها في تلك المنطقة بالذات: فمدينة حلب إنما أقيمت في الموقع الذي توجد فيه نظراً لوجود تل طبيعي يسيطر على المنطقة التي تحيط به ويشرف عليها .

ثانياً: وجود مدينة ملكية أو حي (ملكي) وكثيراً ما ينشأ هذا الحي في مركز حضري كان موجوداً من قبل بالفعل، ولكن قد يتم انشاء ذلك الحي الملكي في أحيان أخرى، في أرض جديدة تماماً فيصبح هو ذاته مركزاً ينمو من حوله التجمع الحضري، نتيجة لنزوح كثير من الناس اليه، ممن تجذبهم أضواء السلطة والثروة والشهرة، التي يضيفها البلاط على كل ما يتصل به . وليس المقصود بذلك هو وجود قصر ملكي، وإنما المقصود هو وجود « مجمع » يضم قصور الأمراء والمصالح الحكومية والإدارات وأماكن لسكنى الحرس وما إلى ذلك، وهي مجمعات تختلف في الشكل والحجم تبعاً لنوع الحكومة والمجتمع . وقد يقوم هذا المجمع في القلعة ذاتها في عصور الشدة والاضطرابات، حتى يمكن إدارة شؤون الدفاع عن المدينة . أما في أوقات الرخاء والهدوء والنجاح والتقدم فإن هذا البلاط قد ينتقل إلى المناطق الأخرى المجاورة والأكثر اتساعاً ورحابة فيجذب وراءه الدواوين والادارات الحكومية .

ثالثاً: وجود مركز للمدينة يضم المسجد الجامع والمساجد الكبرى والمدارس الدينية والأسواق المركزية بكل ما تضمه وتلحق به من خانات وقسريات، إلى جانب وجود مناطق خاصة للتجار والحرفيين . كما تقام فيه مساكن الطبقات الغنية الموسرة، وكبار رجال الدين، أي أن هذا الحي المركزي يضم المشتغلين بالنشاط الاقتصادي (التجار) والنشاط الديني (رجال الدين والعلماء) على السواء .

رابعاً: وجود منطقة تضم الأحياء السكنية التي تتميز بالاستقلال النسبي لكل حي من هذه الأحياء أو لكل مجموعة من الأحياء معاً . وهذا أمر طبيعي حيث يميل أبناء الدين الواحد أو المهنة الواحدة أو الحرفية الى التجمع معاً نظراً لما في ذلك من شعور بالأمن والأمان والتأسك، وبخاصة حين تكون المدينة جديدة وسكانها وافدين جدداً، فتميل كل فئة إلى التجمع معاً والإقامة في منطقة أو حي واحد .

خامساً: وأخيراً وجود ما يمكن تسميته بالضواحي أو الأحياء الخارجية حيث قد يقيم الوافدون الجدد الذين لم يستقروا بعد، وحيث يمكن أن تمارس بعض الأعمال المعنية، وكثيراً ما كانت توجد مناطق القوافل على أطراف المدن، وعلى طول الطرق الرئيسية، أي ان تلك المواطن كانت تقام خارج أسوار المدينة ذاتها، كما أن المدافن كانت هي أيضاً تقام خارج أسوار المدينة^(١) .

هذه هي الملامح الأساسية للمدينة الإسلامية التي كانت تستمد طابعها الخاص المميز من الاسلام نفسه، الذي تعادى حدود الدين بالمعنى الضيق للكلمة وصنع الحياة في العالم الاسلامي بصبغة معينة امتدت إلى جميع نواحي

النشاط اليومي وهذا هو ما نقصده حين نقول عن الإسلام إنه أسلوب للحياة .
وهكذا برزت وظائف المدينة الاسلامية الدينية والاجتماعية والاقتصادية مرتكزة على الدين الاسلامي .

الوظيفة الدينية في المدينة الاسلامية

فمن الناحية الدينية كان الدور الذي تلعبه المساجد والمدارس الدينية والزوايا والطرق من أهم ما يميز المدينة الاسلامية، ولقد كانت كلها تتمتع بمكانة عالية بحيث لم يكن في امكان الحكام ولا الأعيان تجاهلها أو الإغضاء عنها، ومن هنا فإنها كانت تقدم الهيكل العام للحياة الحضرية بحيث نجد أن كل ما كان يتخذه الحكام والولاة من قرارات كانت تكتسب شرعيتها عن طريق المسجد والمدرسة، كما أنه عن طريقها كان الرجل العادي يشارك في الحياة الجماعية ككل .

والمدن الاسلامية تنقسم الى نوعين: مدن رسمية أي حكومية من تخطيط الأمراء، ومدن الجماعة التي يقوم بتخطيطها أهل الحل والعقد من جماعة المسلمين . والنوع الأخير هو الذي يعبر عن الصورة الكلية للجماعة، بمعنى أن مدينة الجماعة تبين من حيث الشكل، كيف يذوب الفرد في المجموع . وتظهر روح الجماعة الاسلامية على المستوى المدني في إدارة الأوقاف التي يقع على عاتقها - في كثير من الأحيان - تنظيم المساجد والمدارس والمستشفيات والفنادق والحمامات . هذا، كما يرجع الفضل إلى الأوقاف في طول حياة المدن الاسلامية وضمان استمرارها التاريخي، عن طريق تعهد المرافق العامة وصيانة المنشآت الخيرية التي كانت في خدمة المجتمع^(٢) .

أما المدينة الملكية مثل بغداد المدورة، وقاهرة المعز، وزهراء الناصر فهي تعبر عن الجانب الرسمي الملتمزم للإسلام، أما كرخ الضفة الغربية لدجلة، مثل رصافة الضفة الشرقية، وفسطاط عمرو مع الجيزة، وكذلك قرطبة مع ربطها الجنوبي في شفندة . . فإنها تعبر عن الجانب الشعبي الرحب للإسلام .

ومهما يكن فالمدينة الاسلامية هي دار السلام مقابل: « دار الحرب » أو بلاد المشركين المستباحة من قبل المسلمين، حيث لا أمن ولا سلام^(٣) .

فمن حيث الحياة اليومية نجد تغلغل الاسلام كدين وعقيدة في كل مناحي الحياة من مادية ومعنوية . ويكفي أن ننظر في كتاب الماوردي في « أدب الدنيا والدين » لننتعرف على أن نظام الحياة الاسلامية هو في حقيقة الأمر نظام كلي من حيث أنه ينبغي أن يشمل كل أسباب الحياة اليومية على المستوى العام والخاص لكل جماعة المسلمين . وفي ذلك ينص الماوردي في باب أدب الدنيا، على أن صلاح الدنيا « معتبر من وجهين، أولهما: ما ينظم به أمور جللتها والثاني: ما يصلح به حال كل واحد من أهلها . فهما شيان لا صلاح لأحدهما إلا بصاحبه لأن من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها، لن يعدم أن يتعدى اليه فسادها . . . ومن فسدت حاله، مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها، لم يجد لصلاحها لذة، ولا لاستقامتها أثراً، لأن الانسان دين بنفسه . . »^(٤) .

وهكذا تتبلور نظرية الحياة المعتدلة فيما يكون من التوازن بين الدين والدنيا، حيث التأثير والتأثر متبادل بينهما . فبفضل الدين تصلح الدنيا، وإذا « صلحت الدنيا كان اسعادها موفوراً واعراضها ميسوراً، لأنها اذا

منحت هنأت وأودعت وإذا استردت رفقت وأبقت». وعلى العكس من ذلك تفسد الدنيا من غير دين و«إذا فسدت الدنيا كان اسعادها مكرراً، واعراضها غدرأ، لأنها اذا منحت كدت وأتعبت، وإذا استردت استأصلت وأجحفت»^(٥).

ومن العلاقة بين الدين والدنيا، ينتقل قاضي القضاة البغدادي (في أدب الدنيا) إلى الكلام عن ضرورة التعاون بين الناس وطريقة اختيار الأخوان والأصدقاء، قبل أن يعالج هموم الناس اليومية في معاشهم، ووجوه مكاسبهم من: الزراعة ونتاج الحيوان والتجارة والصناعة بأنواعها من فكرية وعملية. ويختم ذلك بعرض لمذاهب الناس في الغنى والفقر.

ففيما يتعلق بأسباب المعاش، وأولها المأكل كانت الشريعة تنظم انتاج الطعام وتحث عليه. فالعمل في الزراعة يتم في هداية الآية التي ضرب الله بها المثل في الخير والبركة فقال «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل، في كل سنبله مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء»^(٦). هذا كما حثت الأحاديث النبوية على العمل في الزراعة، فمنها: «من غرس غرساً فأثمر، أعطاه الله من الأجر بقدر ما يخرج من الثمر». ومن الوصايا في اصلاح المرء صنيعته قيل لأبي هريرة: «ما المروءة؟ قال: تقوى الله، واصلاح الصنعة»^(٧).

أما عن الانتاج الحيواني فهو وثيق بالزراعة، وفي ذلك يروى الحديث الذي يقول: «خير المال مهرة مأمورة، وسكة مأبورة ومعنى مهرة مأمورة أي كثيرة النسل، وأما السكة المأبورة فهي النخل المؤبرة الحمل».

ولا شك أن كثرة الانتاج الزراعي والحيواني كان يؤدي الى نمو حركة التجارة التي صارت مصدر ثراء العالم الاسلامي في العصر الوسيط، وهو الأمر الذي أدى الى ازدهار حضارة الاسلام. وكانت العناية بالتجارة تتم في ضوء التعاليم النبوية المتواترة، ففي ذلك يروى عن النبي ﷺ قوله: «تسعة أعشار الرزق في التجارة والحرف والباقي في السائبات»^(٨).

والحرف والصناعات كان ينظمها الحديث الشريف الذي يقول: «ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه». وكان أصحاب كل حرفة من الصناع يتجمعون في المدينة في اتحاد عمالي هو النقابة التي كان عليها الإشراف على تهيئة حاجات المدينة من صناعاتهم، كما كان يقع على عاتقهم الإشراف على حسن سير العمل وجودة الإنتاج، وذلك في ضوء الحديث الشريف الذي يقول: «ليس منا من غش»^(٩).

وكان العاملون في الصناعات، مثلهم مثل التجار في الأسواق، يخضعون للرقابة الحكومية الممثلة في المحتسب، الذي كان في أول الأمر تابعاً من أعوان القاضي، قبل أن يستقل بوظيفته التي كانت تسمى أيضاً بصاحب السوق. والاحتساب من الوظائف الدينية، وذلك أن صاحبها كان مكلفاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي نصت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. فمن القرآن الكريم: «كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر». وفي الحديث: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فليسهه، فإن لم يستطع فليقلبه، وهذا أضعف الايمان».

وكانت أهم واجبات المحتسب في رقابته على الأسواق، منع الوساطة في التجارة، حتى يتحقق الغرض من إقامة السوق، وهو الاتصال المباشر بين البائع والمشتري، مما يمنع الغش، ويحد من ارتفاع السعر، فضلاً عما يحوم حول الوساطة من شبهة أشبه بشبهة الربا. وكان منع الغش في السلع والنقود، ومراقبة الأسعار، والتأكد من سلامة الموازين والمكاييل من أعمال المحتسب وأعوانه، كما كان الأمر بالنسبة للرقابة على الأخلاق العامة، وخاصة في الأسواق والحمامات والفنادق. وإذا كان ضمان سلامة الطريق يتم في ضوء الحديث الذي يحث على إزالة الأذى منه يعتبر من الإيمان فإن الرقابة على الأخلاق العامة كانت من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كذلك كان أثر الدين ظاهراً في المدينة الإسلامية فيمنع فيها بيع الخمر في الدكاكين وكذلك شربه في الأسواق، كما خلت المدينة الإسلامية بطبيعة الحال من لحم الخنزير، رغم وجود النصارى من أهل الذمة. كذلك لم يكن يباع في الأسواق إلا اللحم المذكى أي المذبوح دون قطع الرأس، حسب الشريعة، وحيث تكون التسمية والتكبير أثناء الذبح. هذا كما قد يدعى للحيوان المذبوح بالصبر على ما أصابه من البلاء أيضاً، الأمر الذي يعني أديباً إسلامياً جليلاً في مجال الرفق في الحيوان^(١١).

وكما فرضت الشريعة نوعاً من الرقابة على المواد الغذائية، فإنها نظمت كذلك طريقة الأكل والشرب، وذلك بما قرره السنن النبوية فيما يعرف بآداب الطعام، وهنا يظهر لنا نوع من المقابلة بين آداب الصلاة أو شعائرها وبين آداب الطعام. فكما أن التطهر بالغسل أو النظافة بالوضوء كان يسبق أداء الصلاة، وكذلك كانت نظافة الأيدي والفم تسبق البدء بالأكل، بل زاد الأمر من حيث ما كان يجب من نظافة بعد الطعام أيضاً.

وكما كانت الصلاة تبدأ بالنية وتنتهي بالتسليم، كان الطعام يبدأ بالبسملة وينتهي بالحمد لله. وذلك اقتداء بقول الرسول: «سَمَوْا إِذَا أَكَلْتُمْ، وَاحْدُوا إِذَا فَرَعْتُمْ»^(١٢). أما عن كيفية تناول الطعام فلا تكون إلا باليد اليمنى أبداً، وكذلك الحال بالنسبة للشراب. وفي ذلك قال النبي: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ»^(١٣).

والظاهر أن تلك الشعائر أو الطقوس الخاصة بالأكل، جعلت من الطعام عند جبهة المسلمين وكأنه شيء مقدس أو شيء ثمين له حرمة، فلا يجوز أن يكون محط أنظار الغرباء أو الفضوليين. هكذا جرت العادة أن يكون الطعام في داخل الدار، حتى تتم مراسمه التي سبق ذكرها من: الطهارة، والبسملة، والأكل باليد اليمنى، وتصغير اللقمة، وحسن المضغ، وبناء على ذلك لم يكن من الغريب ألا يستحب الأكل في الأسواق أو الطريق العامة.

والأثر الديني واضح أيضاً في طريقة الكساء الإسلامية، كما هو الحال في الطعام والشراب، بل يصح القول أنه كان أكثر وضوحاً. وكانت الملابس العربية قد صارت منذ وقت مبكر هي الملابس الدارجة في عالم الإسلام، تماماً كما كانت الحال بالنسبة للغة العربية.

وموقف الإسلام من الثياب هو موقف الوسط أي الاعتدال، دون تطرف. وفي ذلك تقول الآية الكريمة:

« قل مني حرم زينة الله التي أخرج لعباده »، كما يقول الحديث الشريف: « كلوا واشربوا والبسوا، وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة ». ولما كان اللباس مقترناً هنا بالأكل والشرب فلا بأس من النظر فيما حددته الشريعة من القيود في مجال الكساء، في مقابل ما رأيناه من المنوع أو المحرم من الغذاء. ولما كانت الثياب تتخذ من خيوط نباتية أصلاً أو حيوانية، ولما كان التحريم في الغذاء منصباً على لحم الخنزير لذاته، فقد صار كل ما يمت إلى الخنزير بصلة نجساً بحكم الضرورة وهذا ما لا ينطبق على غير الخنزير من الميتة. وهكذا صار شعر الخنزير نجساً نجاسة عين، فلا يجوز استخدامه في صنع ثياب المسلم. أما عن الميتة فلما لم تكن نجسة في ذاتها، فقد صحت الاستفادة من جلدها في عمل سفر الطعام أو القرب لحمل الماء أو حفظ الطعام.. كما أمكن اتخاذ الثياب من وبرها أو شعرها، وهو ما نصت عليه الأحاديث النبوية.

أما عن لبس الحرير واتخاذ فراشاً فأمره واضح بالنسبة للنساء وهو مباح. أما بالنسبة للرجال فيمكن القول أنه أثار شيئاً من الخلاف في الرأي من حيث المنع والإباحة. والقصد من تحريم الحرير بالنسبة للرجال، هو الخوف مما يتسببه الأخذ بمتع الحياة من الذهاب بخشونة الرجال وصلابتهم، الأمر الذي لم يكن مقبولاً في بداية تكوين الجماعة والدولة. والمهم من حديث النهي عن الحرير بالنسبة للرجال، أنه ليس ممنوعاً لذاته بل لخشية نعومته المسرفة في نعومتها. وبناء على ذلك فقد سمحت السنة النبوية بلبس الحرير كنوع من التداوي من مرض الحكمة^(١٣)، كما أجازت استخدامه إلى حد محدود في ثياب الرجال، كذلك الأترج وتلك المثيرة مما كانت تصنعه النساء لتزيّن به ثياب القسي المضلعة، المجلوبة من مصر والشام. وهكذا استقر مبدأ جواز استخدام الحرير في صنع الملابس الرجالية وبالقياص جاز التزين ببعض حلى الذهب كالحاتم أو الحلقة - على الأقل عند من يأخذون بالرخص في أمور الدين، وهم كثيرون^(١٤).

هذا فيما يتعلق بالمواد الأولية المستخدمة في صنع الثياب وما حرم منها مثل شعر الخنزير، وما نهى عنه جزئياً كالحرير والذهب والفضة. أما عن قص الثياب وخياطتها وتطريزها، إلى غير ذلك مما يدخل في فن الحياكة، فقد كانت محكومة هي الأخرى بالسنن النبوية، ومتطلبات فرائض الاسلام. ففريضة الحج تتطلب ذلك الزي المعروف من الثياب غير المخيطة، بزّي الإحرام، وهو الذي يتفق مع بساطة الاسلام وسماحته. وفيه تنص السنة على أنه: « لا يلبس المحرم القميص ولا السراويل، ولا البرنس والخفين، ولا يجد النعلين ما هو أسفل من الكعبين »^(١٥). وكما كانت ثياب الاحرام خلواً من المخطط مما هو على الجسد أو الرجلين، كذلك لا يلبس الحجيح الثياب الملونة، بل البيضاء النقية الصافية، وذلك اتباعاً للسنة التي تنهى عن أن يلبس المحرم ثوباً مصبوغاً بؤرس أو زعفران^(١٦).

وكما تطلب الحج ثياباً تؤكد بساطة الاسلام وتواضعه، مما يقرره مبدأ المساواة بين جميع المؤمنين في بيت الله الحرام، كذلك يكون الحال بالنسبة للملابس المسلم وهو يؤدي الصلاة، في المسجد أو في البيت. حقيقة أن السنن قضت بأن يأخذ المصلي زينته عند ذهابه إلى الصلاة في المسجد، ولكن المقصود بذلك هو النظافة، والمظهر الحسن، والرائحة الطيبة. واشتهر النبي بحبه للطيب، وبمنعه أكل البصل والثوم خوف إزعاج المصلين، وهكذا

قضت السنن بعدم التبرج، بل بلبس الثياب الوقورة في الصلاة، فذلك ما قرره النبي عندما ترك الثوب المزوق بالاعلام الملونة، والذي كان يعرف بـ (الخميصة) لأنه كان يلهيه في الصلاة فاستبدل به غيره^(١٧).

وكذلك قضت فريضة الحج بالزي الساذج واللون الأبيض، وتطلبت الصلاة نوعاً من البساطة في الثوب والاقتصاد في الألوان. وعن هذا الطريق أصبح الثوب القانوني من وجهة النظر الدينية، اذا صحت العبارة، هو الثوب الوسط الذي يؤدي الغرض الأول منه، من حيث كسوة الجسد وستره، إلى جانب اتصافه بالرزانة والوقار من حيث عدم لفت الأنظار إليه أو إلهاء صاحبه عن حسن اداء فريضة الصلاة بما يليق بها من خشوع وإخلاص. والطراز الاسلامي الأصيل في الكساء هو الطراز العربي العريق، الذي يتمثل في: الثوب، والحلة، والإزار، والقميص قبل سراويل، والرداء، والبرنس، والحجة، والقباء، والبردة، والحبرة، والشملة ثم الخميصة (ذات الأعلام الملونة). وفيما يتعلق بغطاء الرأس تذكر: العمامة والحاشية التي تعصب بها الرأس، ثم المغفرة (في الحرب). ومن الأحذية كانت النعال هي الدارجة وبعدها يأتي الخف^(١٨). أما ما دخل بعد ذلك من القلنسوة والشاشية والطيلسان للرأس، أو القفطان والقرطق والصدار، والبدنة، وغيرها من ملابس الرجال والنساء، فكانت دخيلة من عند الفرس والترك والروم والقبط والقوط والبربر، وغيرهم ممن عاشوا في حظيرة الإسلام أو كانت لهم علاقات وثيقة به.

والمسكن شبيه بالملابس من حيث أنه السكن والحماية من عوارض الطبيعة ومن حيث انه الستر الحافظ من عيون المتطفلين والفضوليين. والمسكن في النهاية حرم أي مكان مقدس، من حيث أنه يحفظ النساء. وهن الحرم حقيقة - مع العيال والذاري، إلى جانب حفظ المال والمتاع. و«المال والبنون زينة الحياة الدنيا» كما تنص الآية الكريمة. ومن هنا قالوا: «دار الرجل جنته في الدنيا» كما قالوا: «ينبغي للدار أن تكون أول ما تبتاع وآخر ما يباع»^(١٩). ثم أن الدار الاسلامية بعد ذلك، ما هي إلا حرم حقيقي وليس مجازاً، من حيث أنها تصلح مكاناً للعبادة كما هي للسكن والسكنى.

ولقد كان للمسجد الجامع - من الطراز العربي، وهو طراز مسجد النبي في المدينة أثره الذي لا ينكر على تصميم الدار في مدن الاسلام بشكل عام. فقد أصبحت الدار بناءً مربع الشكل يتوسطه فناء أشبه ما يكون بصحن الجامع. وعلى هذا الفناء تتفتح أبواب الحجرات، فكان صحن الدار هو المتنفس لأهلها، فهو يمدهم بالشمس والضوء والهواء، وهم في داخل حرمهم بعيداً عن أعين الغرباء. وربما غرس الصحن في الدار الكبيرة بأشجار الفاكهة أو الرياحين حتى يصبح جنة القاطنين فيها.

وتزخر المدينة الإسلامية بالعديد من المساجد التي تتمثل فوائدها العملية في أنها كانت تنظم حياة المدينة بفضل الصلوات التي تؤدّى خمس مرات في اليوم ما بين الفجر والعشاء. فالأذان من أعلى المئذنة كان يحدد الوقت لأهل المدينة، حيث كانت الأعمال تبدأ وتنتهي، واللقاءات تتم والحاجات تقضى تبعاً لمواعيد الصلاة. وعلى وجه

التفضيل بعد قضاء الفريضة . سواء كانت صباحاً أو مساءً ، حيث تكون هناك فسحة من الوقت قبل الصلاة التالية .

وإذا كانت الصلوات اليومية تؤدي طوال الأسبوع في مسجد الحي القريب من الدار إن لم يكن في الدار أحياناً ، فإن صلاة الجمعة كانت تؤدي باحتفال عظيم في المسجد الجامع في وسط المدينة ، في حي السوق الكبير . كما كانت تُعقد مجالس الوعظ والتذكير التي يعقدها مشاهير الفقهاء والتي كان الناس يحتفلون بها احتفالاً عظيماً في المساجد الجامعة .

الوظيفة الاجتماعية في المدينة الإسلامية

كانت المدينة الإسلامية تؤلف مجتمعاً معقداً من الناحية الجنسية ، إذ كان يضم أخلاطاً بشرية وأجناساً متعددة تعربت ، ومع ذلك فيمكننا إجمالاً أن نميز في المجتمع الإسلامي الأول عنصرين أساسيين هما العرب وأهل البلاد المفتوحة . ومن هؤلاء تكون المجتمع من الناحية الدينية : من المسلمين وأهل الذمة .

أما عن البناء الاجتماعي للمدينة الإسلامية ، فإن اكتظاظها بالسكان وبالمرافق من جهة ، وبألوان النشاط البشري من جهة أخرى ، جعل المدينة الإسلامية تجمع بين أسوارها فئات متباينة من الناس ، يشكلون طبقات متعددة ، تشكل كل منها لبنة في البناء الاجتماعي للمدينة .

وأولى هذه الطبقات ، هي طبقة الحكام ، وتضم أهم عناصر مجتمع الخاصة الذين بيدهم مقاليد الأمور من رجال الإدارة والحكم ، وكانوا يشكلون الطبقة العليا في المجتمع الإسلامي ، ويدخل فيها الولاة والوزراء والكتاب والحجّاب ، وكان قوام هذه الطبقة من العرب في عصر الخلافة الراشدة والدولة الأموية ، ثم تبدل الأمر في العصر العباسي فغلبت الأجناس التركية والفارسية .

ويمكن أن تنضم إلى هذه الطبقة جماعة من آل البيت تميزوا في المدينة الإسلامية باسم الأشراف ، أو الشرفاء . وكانت لهذه الجماعة نقابة تعرف بنقابة العباسيين أو الطالبين أو الأشراف لهم ديوان يثبت فيه أنسابهم ، وشيخ له حق القضاء بينهم ، والتدخل في زواجهم صيانة للنسب الشريف من الامتهان^(٢٠) .

ونشير إلى أنه مع بداية العصر الأموي أخذت الحياة في المدينة الإسلامية تتخلى تدريجياً عن بساطتها الأولى ، وهي البساطة التي اتصفت بها حياة المسلمين - حكاماً ومحكومين - في المدينة ومكة ، وأخذت تتأثر في بعض جوانبها بالطابع الروماني الفارسي . وظهر هذا الاتجاه أول ما ظهر في بلاط الأمويين بدمشق ، إذ أخذت مسحة من الترف تملو حياة الحكام ، فلم يكتف الخلفاء باتخاذ الحجّاب ، وإنما أمعن بعضهم في التمتع واللهو ، وصحب هذا وذاك تشبه الحكام من الخلفاء والأمراء بالروم ، فصارت لهم في دمشق القصور الفاخرة التي ازدانت جدرانها بالفسيفساء وأعمدتها بالرخام والذهب^(٢١) .

وازدادت مسحة الترف والتنعم عند الحكام عندما غدت بغداد حاضرة الخلافة العباسية، اذ ترك الفرس ثم الترك أثراً واضحاً في المجتمع بوجه عام وفي حياة القصور بوجه خاص. ذلك أن كثيراً من الخلفاء العباسيين اتجهوا تحت تأثير النفوذ الفارسي من ناحية والثروة الواسعة التي رأوا أنفسهم غارقين فيها من ناحية أخرى نحو بناء القصور العظيمة وتأثيثها بفاخر الأثاث والرياش. ثم هذا الوزراء والأمراء والقادة وكبار رجال الدولة حذو الخلفاء حتى غدت القصور سمة من أبرز سمات الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية في العصر العباسي.

ويعيننا ما اتصفت به الحياة الاجتماعية داخل هذه القصور من نشاط وبذخ، الأمر الذي ظهر في الحفلات التي كانت تقام بين حين وآخر في مختلف المناسبات، وفيها كانت تمتد صواني الذهب الخالص مرصعة بأصناف الجواهر، والخدم يأتون بزناجيل مملوءة بدراهم ودنانير يصبونها بين أيدي المدعويين، وهم يصيحون (ان أمير المؤمنين يقول لكم: ليأخذ من شاء ما يشاء). على أن أهم ما تميزت به حياة القصور - في بغداد العصر العباسي - المتعددة الأنواع، وأشهرها مجالس الغناء والطرب والموسيقى، ومجالس الشراب، ومجالس القصاص ومجالس الوعاظ^(٢٢). ولكل مجلس من هذه المجالس مناسبه وجوة الخاص المميز. واشتهرت مجالس الطرب والغناء بصفة خاصة بما كان يجتمع فيها من مغنين ومطربين وموسيقين، فضلاً عن الجواري اللواتي اشتهرن بالعزف على الآلات الموسيقية^(٢٣)، هذا مع ملاحظة أن أفراد الطبقة الحاكمة من وزراء وأمراء ونحوهم، كانوا يحرصون عادة عند بناء قصورهم على إقامة أماكن واسعة لحفلات الغناء، تشبهاً بالخلفاء^(٢٤).

ولم يكن خلفاء بني أمية بالأندلس أقل شغفاً بالغناء والمغنين^(٢٥). أما مصر فقد أمعن حكامها في حياة الترف مستغلين ثروة البلاد وغدت القاهرة ميداناً لنشاط اجتماعي حافل، اذ أسرف الخلفاء في بناء القصور فيها وتأثيثها بالسطور والطنافس الحربية المزركشة بالذهب، حتى وصف ابن خلكان أحد هذه القصور (بأنه لا يوجد شبيه له في الشرق ولا في الغرب)^(٢٦). هذا فضلاً عن الأسمطة الفاخرة التي تمتد في كل مناسبة والتي أفاض المؤرخون في وصفها، وما كانت تحويه من لذيذ الطعام والشراب.

وإذا كانت الظروف التي أحاطت بالبلاد والعباد في عصر الحروب الصليبية قد فرضت على الحكام من بني أيوب قدراً من التقشف وعدم الإسراف، فإن سيطرة المماليك على الشريان الرئيسي للتجارة بين الشرق والغرب أمدهم بثروة طائلة ظهر أثرها في حياتهم الخاصة والعامة، وأسهمت في تشكيل الحياة الاجتماعية في المدن التي عاشوا فيها. ونسمع من المصادر كثيراً عما حفلت به القصور السلطانية في عصر المماليك من أثاث ورياش وناפורات وصنابير للمياه الباردة أو الساخنة - حسب الحاجة - بل لقد بلغ الترف انهم نظموا طرق جلب الثلج من جبال الشام لتبريد الماء زمن الحر صيفاً في مصر وذلك «لكمال الرفاهية والأبهة»^(٢٧).

وهكذا يتضح من هذه العجالة أن الطبقة الحاكمة كان لها دورٌ نشيط في الحياة الاجتماعية التي حفلت بها المدن الإسلامية، ولا يخفى عنا أن هذا النشاط الذي بدأ في صورة كبيرة في العواصم والمدن الكبرى امتد في صورة أو أخرى إلى المدن الإقليمية، كصنعاء وحلب والإسكندرية وفاس وغرناطة، حيث انتشر عدد من الأمراء

وكبار الموظفين، وهؤلاء كانوا في حياتهم الخاصة والعامة صورة مصغرة لما عليه الخلفاء والسلاطين وكبار الأمراء في العواصم .

فاذا تركنا طبقة الحكام من خلفاء وأمراء ووزراء وقادة، وجدنا المدينة الإسلامية وقد حفلت بعدد كبير من رجال العلم والدين، معلمين ومتعلمين . ولم يكن لهذه الطبقة أي مظهر كهنوتي لأن الاسلام لم ينشئ طبقة « رجال الدين »، وانما ظهرت في المجتمع الاسلامي استجابة لحاجة المسلمين للقيام بواجباتهم الدينية، إلا أن الحكام أعطوا لهذه الطبقة سلطات كبيرة لم يخولها لهم الإسلام .

إذ كان إحساس الحكام دائماً بأنهم في حاجة إلى دعامة يستندون إليها في حكمهم ويستعينون بها لإرضاء الشعب، كفيلاً بحرصهم على استرضاء رجال الدين بحكم ما للدين ورجاله من قوة وسطوة في النفوس . وهكذا عاش العلماء في المدينة الإسلامية، في سعة من العيش معززين مكرّمين، فسمح لهم بركوب الخيل المطهّمة، أسوة بالأمراء ورجال الدولة، وأضفيت عليهم ألقاب التشريف والتقدير والتفخيم، مثل فقيه زمانه، وعالم عصره، والذي انتهت إليه رئاسة العلم^(٢٨) . ولعل أقوى دليل على إحساس الناس بمكانة العلماء انهم صاروا يقصدونهم لقضاء حوائجهم ويتوسلون بهم للشفاعة لهم عند أهل الدولة^(٢٩) .

وبعد ذلك تأتي طبقة ثالثة لها أهميتها في المدينة الإسلامية، هي طبقة التجار . وهنا ينبغي أن نفرق بين فئة كبار التجار الذين مثلوا ارستقراطية المال، واختصوا غالباً بالتعامل في السلع الثمينة، كأنواع الرقيق والمجوهرات ونحوها . . وهذا الفريق ارتبط بقصور الخلافة والسلاطين والأمراء وكبار رجال الدولة ارتباطاً مباشراً . . . وفئة صغار التجار والباعة الذين كان اتصالهم مباشراً بعامّة الشعب . والتجار ثلاث فئات : فئة خازنة تعتمد في تجارتها على خزن أنواع معينة من السلع وقت الرخص واعتدال الأسعار وعرضها في الأوقات التي يكثر الطلب عليها بأسعار عالية، وكان على هذه الفئة معرفة أحوال السوق والأسعار المطلوب وغير المطلوب من السلع وذلك باستطلاع أخبار الطرق من الرحالة المحيطة ببلدهم، ثم فئة راکضة مهمتها السعي والانتقال لجلب التجارة من بلاد بعيدة إلى بلادهم، ويشترط فيهم السرعة وحسن التصرف والتبصر . وفئة مجهزة وهم التجار المقيمون أو المستقرون في بلادهم ولهم وكلاء في البلاد لديهم خبرة بالتجارة .

ومن أهم مراكز التجارة الإسلامية كانت البصرة وعدن وقوص والفسطاط والاسكندرية وطرابلس ودمشق وبلبك وفاس والمرية ومالقة ومرو وسمرقند .

وكانت الحكومات الإسلامية تشرف على التجار وتراقبهم خشية التلاعب بالأسعار والتدليس في المعاملات التجارية، ولذلك فقد أنشأت لهم نقابة مسؤولة عن التجار سمي رئيسها بشيخ التجار، وكان من مهام المحتسب مراقبة الأسواق ومنع الغش والتدليس^(٣٠) .

ومع اتساع المدينة الإسلامية وازدهارها، وكثرة سكانها ومرافقها، اكتظت بعدد كبير من الصناع وأصحاب

الحرف للنهوض بمتطلبات ذلك المجتمع . وكان معظم المشتغلين بالصناعات من أهل الذمة ، فقد ذكر أبو يوسف أن أكثر الخياطين والصارفة والصاغة والأساكفة والخرازين من اليهود والنصارى . وقد جرى الوضع أن تكون لأهل كل حرفة نقابة ذات نظام ثابت يحدد عددهم ، ومعاملاتهم فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين الجمهور ، كما يكون لهم شيخ أو رئيس يرأسهم ويفض مشاكلهم ويرجعون اليه في كل ما يهمهم ، لا سيما الوساطة بينهم وبين الحكومة . ولما كان دخول أي فرد جديد في حرفة من الحرف من شأنه أن ينافس أصحابها الأصليين ، فإنهم كانوا لا يرمنون أحداً على طرق صناعتهم إلا أن يكون أتى ليحل محل أحدهم ، وفي هذه الحالة يقبل بشروط^(٣١) .

كذلك اكتظت المدن الاسلامية بجمهور كبير من الباعة والسوقة والسقائين والمكاريين والمعدمين وأشباه المعدمين ، وهؤلاء أطلق عليهم اسم العامة أو العوام . ولا شك في أن هناك نسبة من هؤلاء انخرقوا عن السلوك القويم ، وعرفوا بسوء الخلق ، وصاروا مصدر فساد واضطراب في المجتمع . ومن هذا الفريق ظهرت في مدن العراق جماعة العيارين والشطار الذين تميزت حركاتهم بطابع ثوري ضد الحكام ، والذين زاد من خطرهم أن صار لهم تنظيم مسلح يخضع لرئاسة موحدة تراعي أمورهم^(٣٢) . وسرعان ما احترق بعضهم السرقة والعدوان على نفوس الغير وممتلكاتهم ، حتى غدوا مصدر القلق والفوضى وعدم الاستقرار . أما في مدن مصر فقد أطلق على هؤلاء المنحرفين والدهماء أسماء عديدة نصادفها في المصادر المعاصرة ، مثل البلاصية والزعر والخرافيش وغيرها^(٣٣) . وقد وصف الرحالة ابن بطوطة هؤلاء الخرافيش بأنهم « طائفة كبيرة أهل صلابة وجور ووعاره »^(٣٤) .

ومع ذلك فقد دأب الحكام - من خلفاء وسلاطين - في الدول الاسلامية على مد يد العون - بقدر ما سمحت به الظروف - إلى الفقراء والمحتاجين في المدن وتوزيع الأموال والغذاء والكساء عليهم وخاصة في أوقات الأزمات الاقتصادية ، وذلك لمنعهم من التسول أو الانحراف^(٣٥) .

وإذا كانت الطبقات والطوائف السابقة تعبر في مجموعها عن المجتمع الاسلامي في المدينة ، فإن علينا أن نذكر وجود أقليات لها أهميتها في بناء المجتمع المدني ، تفاوتت في عددها ونوعيتها من مدينة إلى أخرى ، حسب طبيعة كل اقليم من الأقاليم أو مصر من الأمصار . وفي جميع الحالات فإنه من الثابت أن تسامح الاسلام ساعد على اضافة جو اجتماعي خاص على المدن الاسلامية ، تسوده روح الإخاء بين أهل المدينة على اختلاف طوائفهم ومللهم ونحلهم . وإن المطلع على كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر أو كتاب المواعظ والاعتبار للمقرئزي ، يستعي نظره ذلك العدد الكبير من الكنائس والأديرة والهيكل الخاصة بأهل الكتاب في دمشق والقاهرة ، والتي سمح لهم بالاحتفاظ بها ومباشرة طقوسهم فيها . ومن بين ثنائيا الكتب المعاصرة نخرج بفكرة واضحة عن مدى الحرية التي تمتع بها النصارى واليهود في المدن الاسلامية ، في ممارسة كافة ألوان النشاط الاقتصادي وغير الاقتصادي ، حتى جمعوا الثروات الطائلة وتقلدوا أرقى المناصب في الدولة^(٣٦) . وكان للنصارى بطرك في عاصمة الدولة ، وللإهود

رئيس أو حاخام، يشرف كل منها على أبناء طائفته، ويتمتع بنفوذ قضائي وديني كبير عليهم، فضلاً عن أنه يحظى باحترام الدولة ويخلع عليه عند توليه منصبه^(٣٧).

وقد أدى كل ذلك إلى كثير من التقارب بين عناصر السكان في المدينة الإسلامية، مما أضفى عليها جواً اجتماعياً أكثر مرونة وانفتاحاً مما يتصور البعض، وحسبنا ما نصادفه في المصادر من أن المسلمين وأهل الذمة في المدينة الواحدة كانوا يتبادلون التهاني، ويتهادون بالحلوى في أعياد كل طائفة. ولا عبرة هنا ببعض الفترات التي تعرض أهل الذمة فيها لنوع من الإضطهاد من جانب بعض حكام المسلمين، لأن هذه الفترات كانت قصيرة ومتقطعة، ولا تعبر بأي حال عن روح الإسلام وتعاليمه، أو عن الطابع العام للعلاقات بين المسلمين وأهل الذمة داخل المدينة الواحدة^(٣٨).

ولا شك في أن تنوع طبقات المجتمع وتباينها في المستوى، مع كثرة السكان واختلاف ميولهم ومشاربهم كل ذلك جعل المدينة الإسلامية، تحفل بالنشاط والحيوية، بحيث لم يعدم الناس جميعاً ما يشغلهم ويستنفد طاقاتهم ووقتهم. فبالإضافة إلى العمل والانتاج في ميادين التجارة والصناعة ومزاولة الحرف المتنوعة شهدت المدن الإسلامية، نشاطاً منقطع النظير في الحياتين الدينية والعلمية، من ذلك ما نلمسه من كثرة مجالس الدين وحلقات العلم، التي كانت تعقد في الجوامع، ثم في المدارس والخانقاوات وغيرها^(٣٩). وكثيراً ما كانت المدينة تشهد حفلاً اجتماعياً كبيراً بمناسبة إنشاء مدرسة جديدة أو الفراغ من تصنيف كتاب مفيد أو ختم البخارى.. فيجتمع أهل العلم والدين - من مدرسين وقضاة وفقهاء - فضلاً عن الأعيان، وتحضر «الخلوى والمخبوز والتفاح والبخور» ويمضي الجميع وقتاً بين الترويح عن النفس من ناحية، والنقاش في مسائل دينية وعلمية مفيدة من ناحية أخرى^(٤٠). هذا في حين حظيت مجالس القصاص والوعاظ بقبول نسبة كبيرة من أهالي بعض المدن، فانتشر القصاص والوعاظ في الأسواق والقرافات وغيرها، يرددون قصصهم، أو يبثون مواعظهم التي رغم ما احتوته أحياناً من مبالغاة وانحرافات، فإنها كانت تمثل لوناً من ألوان النشاط النفسي والفكري على المستويين العام والخاص في المدينة الإسلامية^(٤١).

وإذا نظرنا إلى الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية من جانب النشاط الاجتماعي وجدنا المؤسسات العديدة التي زخرت بها المدن الإسلامية. ذلك أنه كان يراعى دائماً عند تأسيس مدينة إسلامية جديدة وفرة المرافق العامة فيها. من ذلك أن أحمد بن طولون عندما وضع أساس مدينة القطائع في مصر في القرن الثالث الهجري، فإنه «عمرها عمارة حسنة» وتفرقت فيها السكك والأزقة، وعمرت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت والشوارع...^(٤٢).

ونلاحظ على المؤسسات التي حفلت بها المدينة الإسلامية أن منها ما كان ذا صبغة اجتماعية بمحطة، كالحمامات والأسبلة والبهارستانات، ومنها ما كان ذا مسحة تجارية أو دينية، ولكنه احتوى نشاطاً اجتماعياً ملحوظاً، وأدى

رسالة ذات صبغة اجتماعية واضحة - كالفنادق والوكالات والجوامع والمدارس ومكاتب الأيتام وغيرها . ويبرز الطابع الاجتماعي لهذا النوع الأخير في انه استهدف التقرب إلى الله تعالى بفعل الخير، سواء بالعناية باليتيم والضعيف أو بالمسافر والتاجر أو بطالب العلم والمريض .

ولعل الظاهرة الواضحة في التاريخ الاسلامي هي أن هذه المؤسسات الاجتماعية التي حفلت بها المدينة الاسلامية، استطاعت البقاء والاستقرار طويلاً، دون أن تتوقف عن اداء رسالتها عقب وفاة مؤسسيها . ذلك انه من الملاحظ في كثير من حلقات التاريخ وعديد من بلاد العالم توقف المؤسسات الخيرية عن اداء رسالتها بعد فترة من الزمن بسبب وفاة مؤسسيها ونضب مواردها وعدم توافر الامكانيات المادية التي تمكنها من الاستمرار في اداء الرسالة، مما يضطرها إلى طلب مساعدة الخيرين بين حين وآخر، حتى تتوقف تماماً عن العمل . أما في ظل الحضارة العربية الإسلامية، فانه قل أن تصادفنا هذه الظاهرة، وذلك بفضل نظام الأوقاف الذي ازدهر مع ازدهار هذه الحضارة^(٤٣).

والمعروف أن الأوقاف بمعناها الدقيق شرعت في الاسلام ليكون ريعها « صدقة جارية » . ومن هذا المنطلق فانها نهضت برسالة ضخمة في رعاية المؤسسات الاجتماعية والخيرية . فاهتمت بالمؤسسات والمنشآت الاجتماعية الخاصة برعاية الأيتام وفتح المكاتب لتعليمهم وتثقيفهم . كما اهتمت برعاية الفقراء والمعدمين في حياتهم وعند وفاتهم، ذلك أنه كان يحدث أن يموت الفرد ولا يوجد من يتكفل بدفنه . واتضحت هذه الظاهرة في أوقات انتشار الأوبئة والطواعين، عندما يتساقط الناس بالعشرات في الطرقات . ولهذا السبب اهتم الخيرون من الحكام والأثرياء بانشاء مؤسسات تنهض بتغسيل الأموات من الفقراء وتكفينهم، ثم دفنهم بعد الصلاة عليهم . وحتى تتمكن هذه المنشآت أو المؤسسات من النهوض برسالتها، وقفت عليها الأوقاف الكافية .

ولم يكن يتامى والفقراء والمساكين وحدهم موضع رعاية المجتمع في ظل الحضارة العربية الاسلامية، وإنما حظي المرضى أيضاً بقدر كبير من الرعاية الاجتماعية في المدن الإسلامية . والمعروف عن الإسلام أنه نادى بالتخفيف عن المريض ورعايته، كما حث على الاشتغال بالطب واجادته، حتى انه روى عن الرسول ﷺ أنه قال : « العلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان »^(٤٤) . وجاء ذلك في المدينة الإسلامية مصحوباً بإشراف دقيق من جانب الدولة على كل من يسمح له بمزاولة مهنة الطب لمنع الأذى وغير الأكفاء من التلاعب بصحة الناس وحياتهم وأرواحهم .

وجاءت هذه الرعاية الطبية مصحوبة بإقامة مؤسسات لمداواة المرضى وعلاجهم بالمدن، وهي التي أطلق عليها اسم بيمارستانات .

وكان للمصابين بأمراض عقلية نصيب من الرعاية في المدن الإسلامية فخصصت لهم أقسام، في البيمرستانات الكبرى، تسهر على رعايتهم وعلاجهم وربما أنشئت مصحات خاصة بهم .

ومن المؤسسات الاجتماعية أيضاً السبل والسقايات لتوفير ماء الشرب لعابري السبيل . والحمامات العامة التي قصدها الناس من مختلف الطبقات - رجالاً ونساء - للاستحمام .

ويسترعي نظرنا في دراسة المدينة الإسلامية كثرة المؤسسات والمرافق الخاصة برعاية الأغراب والعميان والقواعد من النساء، كما أنشئت المؤسسات التجارية مثل الخانات والوكالات والفنادق . وأنشئت السجون لرعاية الخارجين عن المجتمع .

الوظيفة الاقتصادية في المدينة الإسلامية

لقد كانت المدينة الإسلامية في الغالب قصبة إقليم يختلف اتساعاً وضيقاً، ويكون اعتماد الإقليم عليها إدارياً، بينما يكون اعتمادها عليه بما يموئها به من مواد غذائية وكان يوجد بالمدينة عمال لجباية الضرائب منها عيناً ونقداً، ويمتد نشاطهم إلى سواها أي إلى الريف المجاور لها فقط .

وكانت هذه الضرائب تنقسم إلى قسمين: ضرائب شرعية أو مشروعة وضرائب غير مشروعة تعرف بالمكوس .

والضرائب المشروعة وهي التي أباح الشرع جبايتها وتشمل:

١ - المال الخراجي الذي يفرض على سواد المدينة من الأراضي الزراعية، ويحدد على قرار عمال الجباية الذين يزورون الإهراء والمخازن أو يقدرسون المحصول المنتظر أثناء الزرع أو بعد الحصاد .

٢ - المعادن التي تستخرج من أرض المدينة أو ضواحيها، ثم الركاز وهو كل مال وجد مدفوناً فيها . وتقدر الضريبة عليه بنحو الخمس أو العشر .

٣ - الزكاة أو الصدقة، وهي من فرائض الإسلام، وتعني الطهارة لأنها تطهر المال من الجزء المخصص منه للفقراء شرعاً .

٤ - الجزية، وتؤخذ من أهل الذمة كاليهود والنصارى، وتجبي مرة واحدة في السنة من العقلاء والأحرار والبالغين من الذكور .

٥ - الموارث الحشرية، وهي مال من يموت وليس له وارث .

٦ - العشور، وهي المال الذي يجبي من تجار الفرنج الذين يفدون ببضائعهم إلى دار الإسلام، فكانوا يدفعون عشر قيمتها مثل الضريبة الجمركية على المستوردات في الوقت الحاضر .

أما الضرائب غير المشروعة والمعروفة بالمكوس فهي ضرائب اضافية نشأت عن حاجات وظروف جديدة اضطرت الدولة إلى فرضها . وتسمى أيضاً بالمال الهلالي لأنها تجبي مع هلال كل شهر عربي بعكس المال

الخراجي الذي يجبي كل سنة^(٤٥).

هذه الضرائب المشروعة وغير المشروعة التي كانت تجبي من المدن الإسلامية كانت تمثل مورداً مالياً هاماً لبني المال بجانب الأموال الخراجية التي تصله من الأراضي والقرى الزراعية. ومن حصيلة هذا الرصد المالي في بيت المال المركزي، كانت الدولة تقوم بأوجه النفقات المختلفة. مثل: نفقات القصور الخلافية أو السلطانية، وأرزاق الجند، ورواتب الموظفين، والإنفاق على الحملات العسكرية والمعدات الحربية، ونفقات المشروعات العامة مثل حفر الترعة والقنوات وتطهيرها، وإقامة الجسور، وبناء المستشفيات (المارستانات) ومنح العلماء والأدباء، والنفقة على المسجونين، وأسرى الحرب من المشركين ودفن موتاهم. كما ان الحكومة كانت مسؤولة عن انشاء وصيانة بعض المنشآت العامة في المدينة، كدار الإمارة، والمسجد الجامع، والداووين، ومركز الشرطة، والسجن، والمستشفى أحياناً. وهي مسؤولة كذلك عن العناية بماء الشرب في المدينة وتوفيره لأهلها. وترتيب أناس يكنسون الأتربة من الأسواق ورشها بالماء كل يوم، وإزالة الأوساخ من المسالك والأنابيب. وترتيب الخفراء والعسس والدرايين لحراسة الأسواق ومراقبة الأمن في المدينة طوال الليل.

غير أن هذه الخدمات الحكومية لم تكن لها أو لبعضها صفة الدوام في كثير من الأحيان مما اضطر المدينة إلى الاعتماد على نفسها في سد حاجاتها. ومن هنا ظهر لها مورد مالي آخر لعب دوراً هاماً في اقتصادها، ألا وهو نظام الوقف أو الحبوس.

أما بالنسبة للعمل في المدينة الإسلامية فلقد حض الاسلام عليه، وأكد على حرمة، وجعل من الانتاج عبادة وتقرباً إلى الله بل جهاداً في سبيله. قال تعالى: «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون». وقال تعالى: «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة»، فالمقصود هنا القوة في الحرب والقوة في العمل والانتاج. وفي الحديث الشريف: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

ولقد اعتمد العرب في حياتهم بالدرجة الأولى على أعمال التجارة والنقل وتربية الماشية، كما اشتروا ببعض الصناعات المحلية كالمنسوجات والجلود والأسلحة وعلى الأخص في اليمن وعمان والبحرين والطائف والمدينة المنورة.

ومع اتصال الفتوحات العربية مشرقاً وغرباً، وانتشار الاسلام بين الموالي أو أهالي البلاد المفتوحة، واختلاط العرب بهم عن طريق الجوار أو المصاهرة، نشأت الشعوب الإسلامية والعربية التي حافظت على تراثها الحضاري القديم في ميادين الزراعة والصناعة، وعملت على تطويره، لأن طبيعة التطور الحضاري تحتم الاستفادة الخلف من تراث السلف.

ويضاف إلى هؤلاء المسلمين من العرب والموالي، أهل الذمة من الصناع وأصحاب الحرف الذين استوطنوا

البلاد الاسلامية، مستفيدين من الحماية التي تقدمها لهم الدولة . ولم يكن عليهم إلا أن يعترفوا بسيادتها ويطيعوا نظمها ويدفعوا الضرائب لها .

والواقع أن الحكومات الاسلامية بصفة عامة، كفلت لعمالها من أرباب الحرف والصناعات حرية واسعة في ممارسة أعمالهم، ولم تتدخل الا في بعض الصناعات المحدودة التي كانت تتطلب ممارستها الحصول على اذن خاص مثل انشاء الحمامات، وصنع الأسلحة، وسك النقود، وتركيب الأدوية، والعمل في دور الطراز وهذا راجع بطبيعة الحال الى أسباب تتعلق بالمصلحة العامة أو الأمن العام^(٤٦) .

وارتقت الصناعة بتوالي الأجيال ووفرة المواد الخام النباتية والمعدنية واتصال العمران في المدن الاسلامية . على انها ظلت مع ذلك في مستوى الصانع اليدوي، وبقيت السلع تصنع في البيوت أو المحال أو الحوانيت . وقد تطلب هذا العمل اليدوي من العامل أن يبدي مهارة وحذاقاً وصبراً مما أعطى انتاجه، رغم قلته، صفة الإتقان وطابع الطلاوة^(٤٧) . ولهذا كانت حالة العامل الاقتصادية متواضعة، تكفي لضروريات عيشه فقط منطبقاً عليه القول المأثور « صناعة في اليد أمان من الفقر وأمان من الغنى » .

وفي مساحة المدن المحدودة يتجمع عدد كبير من العمال من مختلف الأجناس والأديان، متقاربين في السكن ومتصلين بعضهم ببعض في حياتهم اليومية بالأسواق، تجمعهم روابط اقتصادية واجتماعية وفكرية، كل في مجال تخصصه . ومن هنا نشأ نظام الطوائف والتكتلات الصناعية التي عرفت بأسماء متعددة مثل الأصناف، وأرباب الصناعات، وأصحاب المهن، وأهل الحرف، وهي كلها تعابير تعطي معنى الجماعة لأبناء الصنعة الواحدة .

وهؤلاء الحرفيون والصناع، يحكم كونهم من طبقة العامة في المدينة الاسلامية، فقد لعبوا دوراً هاماً في حياتها العامة، اذ شاركوا في ثوراتها الشعبية، وجعلتها السرية، وفرقها الدينية وفي احتفالاتها ومواكبها العامة في الموسم والأعياد، في وقت لم يكن يوجد فيه على نطاق شعبي ذلك التنفيس الرياضي أو الاجتماعي الموجود حالياً .

وتعددت الصناعات في المدن الإسلامية حتى صارت مظهراً من مظاهر ازدهارها الاقتصادي، وحسبنا أن نذكر بعض الصناعات الحيوية والتي كان للإسلام فضل فيها والتي تتعلق في تصنيفها بمعيشة الانسان من ناحية كسائه وغذائه وشرابه وثقافته والدفاع عن نفسه . وأعني بذلك صناعة الملابس، وجر المياه، والسكر، والورق والأسلحة وغير ذلك .

وكان سوق المدينة يحتل مرآة حياتها الاقتصادية، وعنوان نشاطها التجاري والصناعي بل والاجتماعي أيضاً . وقد تشابهت الأسواق الإسلامية في مظهرها العام تقريباً، فأغلبها مسقوف كي لا تتعرض لعوامل الطبيعة، والبعض الآخر مكشوف . وكان لأهل الصنائع والحرف محلات فيها، ولكل صنعة أو سلعة أو تجارة، سوق مفردة خاصة بها .

ولا يتسع المجال هنا لحصر جميع السلع المعروضة في الأسواق، ولكن نكتفي بذكر بعضها مثل سوق البرازين المكتظة بتجار الأقمشة ومن يتصل بهم من أصحاب الحرف مثل النكاجين والحلاجين والصباغين والخياطين والكوائين، وكل من لهم علاقة بصناعة المنسوجات. ومثل سوق الوراقين أو الكتبيين التي تباع فيها الكتب. ومثل سوق السلاح حيث تباع القسي والسهام والدروع وغنائم الحرب أحياناً. وهناك سوق الكفتين الذي اشتهر بصناعة قطع النحاس المكفت وهي الأوعية النحاسية الجميلة المطعمة بالذهب والفضة كالأباريق والمباخر والصواني. وسوق النجارين حيث تباع المحفورات الخشبية ومن أشهرها المشربيات. ومثل سوق الحلويين التي كان يباع فيها السكر والعسل، والحلوى المصنعة منها.

ولقد تميزت السوق الإسلامية بنوع من المنشآت التي تعرف باسم القياسر وتباع فيها المنتجات الصناعية وسلع الترف وغير ذلك. كذلك تميزت بعض الأسواق الإسلامية بإقامة المسجلات الشعرية والأدبية فيها على عادة أسواق العرب القديمة.

كذلك تميزت السوق الإسلامية، بوجود نوع من التآزر والتماكك بين أفراد أصنافها وطبقاتها كما لو كانوا جسماً واحداً أو مجتمعاً قائماً بذاته. وكانت السوق موجودة بالقرب من المسجد الجامع الذي يعتبر القلب النابض للحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية.

أما الرقابة على السوق فكانت بيد المحتسب - كما سبق أن بينا. وكان من واجباته مراقبة الأوزان والمكاييل، والتحكم في الخلافات التي تنشأ بين أصحاب المهن، وجمع ضريبة الأسواق أحياناً.

ولم تقتصر الوظيفة الاقتصادية على الصناعة في المدينة الإسلامية بل كانت مركزاً مهماً للتجارة وما يتبعها من أعمال النقل والصيرفة التي سبق أن شرحناها.

وبعد فإن المدن الإسلامية امتازت بحياة دينية واجتماعية واقتصادية متعددة الألوان، واسعة النشاط ومتباينة المؤسسات والمنشآت، مما أضفى على الحياة داخل أسوار هذه المدن قدراً من الحيوية، ليس له مثيل في بقية أنحاء العالم المعاصر. ومن الواضح أنه مهما تنوعت ظروف مختلف المدن الإسلامية، باختلاف جذورها الحضارية، قبل الإسلام، وتباين أوضاعها الجغرافية، فإن هناك قدراً كبيراً مشتركاً بين مختلف هذه المدن، جعل بينها عنصراً واضحاً من عناصر الوحدة، استمد أصوله من روح الإسلام وقيمه وتقاليده من ناحية، ومن الظروف والملابسات العامة التي أحاطت بتطور الحضارة العربية الإسلامية على مر القرون من ناحية أخرى.

الحواشي

- (١) Albert Hourany, Sheterne: The Islamic City 1970.
- (٢) Borckhardt, Art of Islam: Language and meaning 1976 p. 181-185.
- (٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، باب الجهاد، ص ٣٧.
- (٤) الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص ٩٧.
- (٥) المصدر السابق، ص ٩٨.
- (٦) المصدر السابق، ص ١٦٣.
- (٧) ابن العوام الاشبيلي، كتاب الفلاحة، الترجمة الفرنسية، ج ١، ص ٣.
- (٨) الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص ١٦٣ - ١٦٤.
- (٩) الماوردي: الأحكام السلطانية، باب أحكام الحسبة، ص ٢٥٣.
- (١٠) عالم الفكر: المجلد الحادي عشر، العدد الأول، ص ٤٦.
- (١١) الطب النبوي، ج ٦، ص ٢٩٨.
- (١٢) المرجع السابق، ج ٦، ص ٢٩٧ - ٢٩٨.
- (١٣) المرجع السابق، ج ٦، ص ٦.
- (١٤) عالم الفكر، المصدر نفسه، ص ٥٤.
- (١٥) البخاري ج ٤، ص ١٨.
- (١٦) المصدر السابق ج ٤، ص ٢٣.
- (١٧) المصدر السابق ج ٤، ص ٢٠.
- (١٨) البخاري: كتاب اللباس، ج ٤، ص ١٧ وبعدها.
- (١٩) العقد الفريد، ج ٦، ص ٢٢٢.
- (٢٠) يحيى أحمد الكعكي: معالم النظام الاجتماعي في الإسلام ١٩٨١، ص ١٠٨.
- (٢١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ١٧٩.
- (٢٢) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٦٧.
- (٢٣) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، ص ٣٧ - ٣٨؛ المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٧٨ - ٢٧٩؛ الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج ٥، ص ٢٠٢ و ٣٥٦ - ٣٥٨.
- (٢٤) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٨٧.
- (٢٥) المقرئ: نفح الطيب، ج ٢، ص ٧٥٠ - ٧٥٤.
- (٢٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٥٢.
- (٢٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٩٥.
- (٢٨) Ibrahim Salama: L'Enseignement Islamique, p. 26.
- (٢٩) السخاوي: تحفة الأرباب، ص ٢٩.
- (٣٠) يحيى الكعكي: معالم النظام الاجتماعي في الإسلام، ص ١١١.
- (٣١) سهر القلماوي: ألف ليلة وليلة، ص ٢٣٢.
- (٣٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حوادث سنة ٤١٧ هـ.
- (٣٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٢١، ٢٥٤.

-
- (٣٤) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ج ٢ ، ص ٨٥ .
- (٣٥) المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .
- (٣٦) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٥٣ .
- (٣٧) متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة أبو ريذة ، ص ٥٨ - ٥٩ .
- (٣٨) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٤٩ ، ٣٣٧ .
- (٣٩) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٤٧٥ .
- (٤٠) المقرئزي : السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٥٥ - ٨٦٠ .
- (٤١) المقرئزي : المواعظ ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .
- (٤٢) سيرة ابن طولون ، ص ٥٢ - ٥٤ .
- (٤٣) سعيد عبدالفتاح عاشور : عالم الفكر ، المجلد الحادي عشر ، العدد الأول .
- (٤٤) رسائل اخوان الصفا ، ج ٤ ، ص ٣٦٠ .
- (٤٥) أحمد مختار عبادي : عالم الفكر ، المجلد الحادي عشر ، العدد الأول ، ص ١٣٠ .
- (٤٦) صالح أحمد العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في القرن الأول الهجري ، ص ٣٠٢ .
- (٤٧) جاك ريسلر : الحضارة العربية ، ص ١١٨ ، ترجمة غنم عيدون .